

تقديم مركز نهوض للدراسات والنشر

هل يوجد إسلام واحد أم إسلامات كثيرة متنوّعة مختلفة؟

وكيف ينبغي دراسة الظاهرة الإسلامية أنثروبولوجياً؟ هل بالانطلاق من المصادر النصّية المرجعية (قرآن، حديث) باعتبار أن الإسلام له هويةٌ محدّدة في تلك النصوص، أم يجب دراسة الظاهرة الإسلامية كما هي مجسّدة ومتعيّنة في الواقع؟

أسئلة يختلف في الجواب عنها الباحثون المتخصّصون في «أنثروبولوجيا الإسلام».

وعلى الرغم من أننا لا نرى أن من اختصاص هذا الحقل المعرفي أن يتناول إشكالية الماهية النظرية للإسلام، وليس له من الأدوات المعرفية ما يجعله مؤهلاً لطرح مسألة الدلالة العقديّة للإسلام، فإننا نرى أن هذا النمط من الأسئلة حاضراً - سواء بصفةٍ ضمنيّة أم بصفةٍ صريحة - في مختلف الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة التي تتناول الظاهرة الإسلامية بالتحليل والبحث؛ إلى درجةٍ يمكن معها تقسيم تلك الأنثروبولوجيا إلى تيارين اثنين بحسب جوابها عن هذا الاستفهام:

تيار يرى أن المصادر النصّية الإسلامية (قرآن/حديث) نصوصٌ صامتة بلا معنى، وأن الحامل البشري لها هو الذي يمنحها الدلالة. وعليه، لا ينبغي إنباء الأهمية لما هو مكتوب في النص، بل يجب الاهتمام بما هو سائد في الواقع، ومتجسّد في سلوك الناس.

من بين من يعبر عن هذا التوجّه في دراسة الظاهرة الإسلامية: مارانتشي Marranci الذي يقول صراحةً في كتابه «أنثروبولوجيا الإسلام» الصادر سنة

٢٠٠٨: «القرآن والأحاديث وأركان الإسلام ستبقى بكماء وفاقدة للمعنى لو لم تُوجد عقولٌ ومشاعرٌ وأحاسيسٌ تُكسبها شكلاً وجوهراً، وتُضفي عليها فِرادَةً من خلال إعلان الفرد نفسه مسلماً»^(١).

كما سار في هذا المسار عددٌ كبير من الأنثروبولوجيين الذين يغالون في نفي أثر النص، ويعطون أولويةً مطلقةً للفهم والسلوك المتجسّد في الواقع. من بينهم ميكائيل جيلسينون Gilsean الذي يخلص إلى القول: إن الإسلام «كلمةٌ تحدّد شتّى علاقات الممارسة والتمثّل والرمز والمفهوم ورؤية العالم»^(٢).

فما الحاصل من هذا الموقف على مستوى التفكير في الظاهرة الإسلامية؟

إن اللازم على مستوى المنهج هو المناداة بوجود دراسة الإسلام كإسلاماتٍ متعدّدة بتعدّد النماذج الواقعيّة. أي بتعبيرٍ آخر: ليس هناك إسلامٌ واحدٌ يتحدّد بالنصوص والمرجعيات المقدّسة. وهكذا يُلاحَظ في هذه الدراسات استبعادها للنص، وعدم إيلائه اعتباراً لفهم المجتمعات الإسلاميّة، حيث لا تستحضر منه إلا ما يستحضره الفاعلون الاجتماعيون، وبحسب تأويلهم له. وهكذا لا يكون للمعنى المعبّر عنه من قبل الفاعل الاجتماعي الأولويةً فقط على المعنى المؤطر داخل النص، بل هو المعنى الذي يجب الاهتمام بدراسته، حيث لا فائدة حسب هذا التوجّه من العودة إلى النصوص ولو كانت نصوصاً مرجعيّة؛ حيث إن الدلالة لا توجد إلا في الوعي والفعل، وليس في الخطاب/النص.

لكن ضدّاً على هذا الموقف، يرى قسمٌ آخر من الأنثروبولوجيين - من بينهم طلال أسد - أنه من الخلل استبعاد مسألة جوهرية في دراسة الظاهرة الإسلاميّة، وهي النصّان المرجعيّان المحدّدان لها، أي القرآن والحديث. إذ كل وجودٍ متعين لجماعةٍ مسلمةٍ ما إلا وله ارتباط وتفاعل مع الإسلام كنصٍّ/خطاب، وكذا مع الممارسات الإسلاميّة كما تجسّدت في تاريخ الإسلام

arranci, Gabriele. 2008. *The Anthropology of Islam*. Oxford: Berg.p29.

(١)

Gilsean, Michael. 1982. *Recognizing Islam: Religion and Society in the Modern Middle* (٢)
East. London: I. B. Tauris.

كسرديّة ترشد السلوك والوعي المتفاعل معها. وبالتالي، فاستبعاد النص من الاعتبار يُحدث نقصاً في إمكانية فهم الظاهرة الإسلامية.

والكتاب الذي نقدّمه للقارئ العربي «ديناميات الشريعة وأنثروبولوجيا الإسلام» هو محاولة للجمع بين هذين المنظورين السائدين في حقل «أنثروبولوجيا الإسلام»؛ حيث يطمح إلى إنتاج مقارنة أنثروبولوجية جديدة بفعل هذا التوليف بين هاتين الرؤيتين السائدتين. ويتضمّن هذا الكتاب الذي حرّره تيموثي ب. دانيالز (Timothy P. Daniels) دراساتٍ عددٍ من أهمّ الباحثين في حقل الإسلاميات، الذين تناولوا عدداً مختلفاً من الموضوعات المتعلقة بالإسلام والعالم الإسلامي، مع أعمالٍ منهاج وأدواتٍ بحثيةٍ متنوّعة، تتراوح ما بين البحث الميداني (ملاحظة، ومقابلات...)، وبين تحليل الخطاب (دراسة نصوص الفتاوى، والوثائق القانونية، والتقارير الإعلامية...)، مع التركيز على بحث التقليد الفقهي في علاقته بالمستجدات والتحديات المعاصرة.

يقول دانيالز محدداً الهدف من هذا المؤلّف بأنه مساهمةٌ في: «إنتاج أنثروبولوجيا تتجاوز الشائبة المغلوطة عن الإسلام بوصفه تقليداً خطابياً أو أطراً تأويلية/متجسّدة متعدّدة». ويعني بالتقليد الخطابي، ذلك المنظور الذي عبّرنا عنه سابقاً بأنه يرى الإسلام خطاباً أو نصّاً، في مقابل المنظور الذي يتعلّق بالأطر المتجسّدة، أي الإسلام كما فهمه ومارسه المسلمون في الواقع؛ لبيان أنه تجسيدٌ متعدّد ومتنوّع بل ومختلف.

فهل حقّق الكتاب هذا التجاوز؟

ترك الجواب للقارئ.